مجلة الدراسات الأثرية ISSN: 1111-7699
المجلد: 23 / العدد: 01 /2025/ ص ص 158-176 EISSN : 2600-6499

# مراحل التطور العمراني لقصر عين ماضي بالأغواط

# Stages of Urban Development of Ksar Ain Madhi in Laghouat

حنان هبول[1*] ، عائشة حنافي [2]
[1] جامعة الجزائر 2 ـ hanane.hebboul@univ-alger2.dz
[2] جامعة الجزائر 2 ـ aicha.hanafi@univ-alger2.dz

تاريخ الإستلام 2025/07/29 تاريخ القبول 2025/12/01 تاريخ النشر 2025/12/31

**الملخص**

تكمن أهمية دراسة التطور العمراني للقصور الصحراوية يكمن في معرفة كيفية تأقلم سكانها مع الظروف البيئية القاسية سوآءا كانت طبيعة أو مناخية، ويتجلى ذلك بشكل خاص في تكيفهم مع درجات الحرارة المرتفعة وندرة مصادر لمياه، كما تعكس هذه القصور العادات والتقاليد الاجتماعية وطريق التفكير والمعيشة، من خلال شكلها العمراني الخارجي وتصميمها الداخلي. ويُعد قصر عين ماضي من أبرز القصور في ولاية الأغواط، حيث يتميز بطابعه المعماري الحجري الذي يعكس عمقا تاريخيًا، ويوفر نموذجاً هاماً في تقنيات البناء المستدام والتأقلم مع البيئة الصحراوية. كما يضم القصر الزاوية التيجانية، التي صُنفّت ضمن التراث الوطني سنة 1982، وتُعد معلمًا تاريخيًا ومزارا دينيًا ذا أهمية كبيرة.

يرتكز هذا البحث على تحديد مراحل التطور العمراني لقصر عين ماضي منذ نشأته وحتى شكله الحالي، مع شرح كيفية تطوره وتكيّفه مع الظروف المحيطة، وذلك بالاستناد إلى أسس تخطيط المدن الإسلامية والقصور الصحراوية. يشمل ذلك تحليل اختيار الموقع، وآليات التأقلم مع المناخ الصحراوي، والشكل العام والتخطيط الداخلي القصر.

**الكلمات المفتاحية:** قصور صحراوية، عين ماضي، الأغواط، التطور العمراني، التأقلم.

**Abstract**

The importance of studying the urban development of Saharan ksour lies in understanding how their inhabitants adapted to harsh environmental conditions, whether natural or climatic. This is particularly evident in their ability to cope with high temperatures and scarce water resources. These ksour also reflect the social customs, traditions, and ways of life of their communities, as embodied in both the external urban form and the internal architectural design of the buildings. Among the most notable ksour in the Laghouat province is the Ksour of Ain Madhi, distinguished by its stone architecture, which reflects a deep historical legacy and offers valuable lessons in sustainable building techniques and adaptation to the Saharan environment. The site also includes the Tijaniyya Zawiya, classified as national heritage in 1982, and considered a significant historical landmark and religious pilgrimage site.

This research focuses on identifying the stages of urban development of Ain Madhi from its origins to its current form. It explores how the site has evolved and adapted in response to its surroundings, considering the principles of Islamic urban planning and the unique features of Saharan ksour. This study addresses the choice of location, adaptation strategies for the desert climate, the overall design and internal layout of the ksar.

**Keywords**: Saharan ksour, Ain Madhi, Laghouat, urban development, adaptation.

* المؤلف المرسل

## 1. مقدمة

يشكّل التخطيط العمراني للقصور الصحراوية درسًا بالغ الأهمية في كيفية التكيّف مع المناخ الصحراوي، وذلك من خلال ما تعكسه تصاميمها العمرانية والمعمارية من حلول ذكية ومتكاملة. وتُعد قصور الجنوب الجزائري من أبرز هذه النماذج، إذ تمثل معالم حضارية شاهدة على عمق تاريخ المنطقة. وقد ارتبطت نشأة هذه القصور بوظيفة استراتيجية، حيث كانت تمثل نقاط ربط بين المحاور الكبرى لقوافل التجارة الصحراوية، وغالبًا ما أُنشئت بجوار مصادر المياه، التي شكّلت العنصر الأساسي في قيام هذه المجمعات السكنية.

يُعتبر قصر عين ماضي واحدًا من أهم قصور منطقة جبال العمور، ولا يزال إلى اليوم محافظًا على طابعه المعماري ومبانيه الأصلية، شامخًا بأصالته التاريخية. ويُعد القصر القديم نموذجًا مميّزًا يحتذى به في بناء القصور الأخرى، لما يتميز به من جمال معماري خاص، بفضل مظهره الحجري، وأسواره العالية، وتحصيناته المتينة، وجدرانه الضخمة. كل ذلك جعله وجهة مفضلة للزوار، خاصةً أنه يُعد مهد ومقر الطريقة التيجانية، التي تحظى بانتشار واسع داخل الجزائر وخارجها، ويُعد القصر القديم بالنسبة لأتباعها مزارًا دينيًا ذا قدسية خاصة.

## 2. أسباب اختيار الموقع:

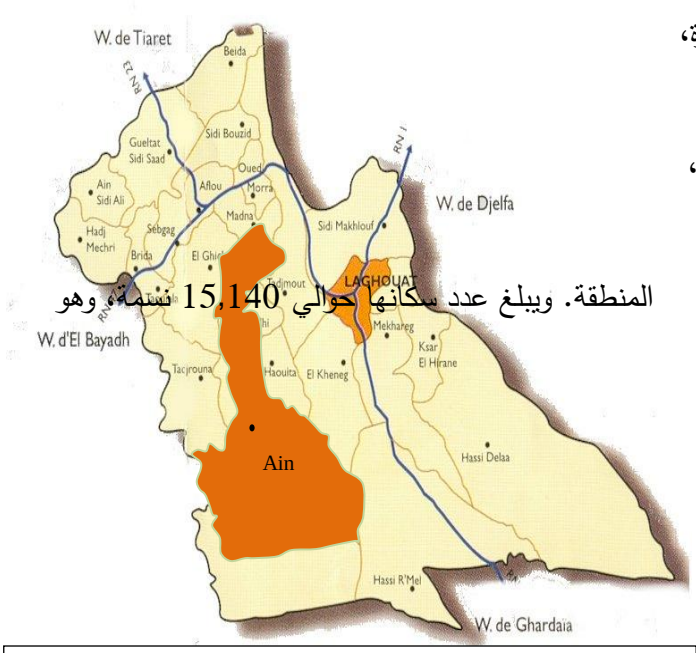
تنبع أهمية اختيار قصر عين ماضي كموقع للدراسة من تعدد القيم التي يحملها، حيث يمتاز بأهمية أثرية كبيرة تمثلت في المحافظة على معالم تاريخية وأثرية فريدة تعكس عمق التراث الصحراوي. كما يتفرد القصر بقيم معمارية متميزة تظهر في تصميمه الحجري المتين وتقنيات البناء المستدامة التي استخدمت لتأمين التكيّف مع البيئة الصحراوية القاسية. إلى جانب ذلك، يحمل القصر قيمة دينية عالية، باعتباره مقر ومهد الطريقة التيجانية التي لها حضور واسع وتأثير كبير داخل الجزائر وخارجها، مما يضفي على الموقع طابعًا روحيًا واجتماعيًا بارزًا.

إضافة إلى ذلك، تُعد دراسة التطور العمراني والمعماري لقصر عين ماضي مهمة بالغة الأهمية، خصوصًا أن هذا الجانب لم يحظَ بالاهتمام الكافي في الدراسات السابقة. يهدف البحث إلى تقديم توثيق شامل لمسارات تطور القصر، من نشأته الأولى مرورًا بالتغيرات التي طرأت عليه حتى شكله الحالي، مع التركيز على كيفيّة تأقلمه مع المتغيرات البيئية والاجتماعية. هذا التوثيق يُثري المعرفة بتاريخ العمارة الصحراوية ويُسهم في الحفاظ على التراث العمراني الجزائري.

## 3. التعريف بقصر عين ماضي:

### 1.3 الموقع الجغرافي:

بلدية عين ماضي تعد واحدة من دوائر ولاية الأغواط العشرة، وتقع جغرافيًا في الجنوب الغربي من عاصمة الولاية. تمتد على مساحة شاسعة تصل إلى حوالي 4070 كيلومترًا مربعًا، مما يجعلها من البلديات ذات الامتداد الجغرافي الكبير في المنطقة. ويبلغ عدد سكانها حوالي 15,140 نسمة، وهو عدد يعكس الطابع السكاني المعتدل مع وجود تجمعات سكنية متناثرة في بعض المناطق. تبعد بلدية عين ماضي عن عاصمة الولاية مسافة تزيد على 75 كيلومترًا، مما يؤثر على الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين البلدية والمركز الإداري للولاية. تتميز البلدية بموقعها الصحراوي الذي يؤثر على طبيعة الحياة فيها، من حيث المناخ والاقتصاد وأنماط السكن، وهو ما يجعل دراسة مواقعها العمرانية والتاريخية ذات أهمية كبيرة لفهم تطور المنطقة.




الشكل رقم 1: الموقع الإقليمي والإداري لبلدية عين ماضي
المصدر: عن P.D.A.U

مر ببلدية عين ماضي الطريق الولائي رقم 231، الذي يتفرع من الطريق الوطني رقم 23 على بعد 37 كيلومترًا، مارًّا ببلدية تاجموت. تحدّها من الشمال بلدية تاجموت، ومن الشرق بلديتا الحويطة والخنق. أما من الشمال الغربي فتحدّها بلدية الغيشة، ومن الجنوب بلدية الضاية التابعة لولاية غرداية. كما تحدّها من الجنوب الشرقي بلدية حاسي الرمل، ومن الجنوب الغربي بلدية بريزينة التابعة لولاية البيض، ومن الغرب بلدية تاجرونة[1] (الشكل رقم1).

### 2.3 المناخ:

يُعد المناخ أحد أهم العوامل المؤثرة في التوازن الطبيعي للمنطقة، لما له من تأثير مباشر على اختيار نمط البناء وتصميمه، بالإضافة إلى المواد المستخدمة في تشييده، حيث يؤثر بشكل كبير على الغطاء النباتي وكذلك على الإطار العمراني المبني. تتميز منطقة عين ماضي بمناخ صحراوي حار وجاف خلال فصل الصيف، وبارد في الشتاء، مع ندرة في الأمطار. ويُعتبر مناخها أكثر برودة نسبيًا مقارنة بمدينة الأغواط، ويرجع ذلك إلى ارتفاع منطقة عين ماضي عن عاصمة الولاية، حيث تفصل بينهما جبال عمور بمدينة آفلو. كما تمتاز المنطقة بوجود مناخ معتدل وجاف في منطقة

[1] المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط، ص 5.

سهل "واد مزي" التي تقع شمال البلدية، مما يشكل تنوعًا مناخيًا ينعكس على الأنماط البيئية والمعمارية المحلية. يعد المناخ أحد أهم العناصر المؤثرة في التوازن الطبيعي، لما له من تأثير في اختيار نمط البناء وهندسته والمواد المستعملة في إنجازه حيث لها تأثير كبير على الغطاء النباتي وكذلك على الإطار المبني[2].

### 3.3 موقع القصر بالنسبة لمدينة عين ماضي:

يقع قصر عين ماضي مع البساتين المحيطة به في قلب مدينة عين ماضي، وقد استمر السكان في الإقامة داخل أسوار القصر إلى غاية سنة 1940، حيث بدأ التوسع العمراني خارج حدود القصر. ويرجع هذا التوجّه إلى عدة عوامل، أبرزها الاكتظاظ السكاني داخل القصر، وضيق المساحة الناتج عن إحاطته بالأسوار والحدائق من جهة، إضافة إلى ظهور تجمعات سكنية جديدة خارج القصر من جهة أخرى، ما أدى إلى تحول تدريجي في النسيج العمراني للمدينة[3].

### 4.3 لمحة تاريخية عن قصر عين ماضي:

يرى بعض الباحثين أن تاريخ تأسيس قصر عين ماضي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتسميته المركبة من كلمتين هما: "عين" و"ماضي". فبالنسبة للكلمة الأولى، "عين"، يُعتقد أنها تشير إلى العين المائية الواقعة شمال المدينة على سفح جبل المركب، والتي كانت تُعد المورد الرئيسي بل والوحيد للسكان في ذلك الوقت. بينما يرى فريق آخر أن كلمة "عين" ترمز إلى الازدهار الفكري والعلمي الذي عرفه القصر حيث كان مقصدًا لطلاب العلم والباحثين الوافدين من جهات متعددة لنهل المعرفة من علمائه ومؤسساته.

أما الكلمة الثانية، "ماضي" فيُرجَّح أنها تعود إلى "ماضي بن مقرب"، أحد أعيان قبيلة قُرّة، وهي من القبائل العربية التي استقرت بالمنطقة بعد قدومها من طرابلس، قابس، وشرقي إفريقيا[4]. ورغم تعدد الروايات حول الوافدين الأوائل إلى القصر، فإن تلك الفترات تُعد من العصور الغابرة التي لم تشهد استقرارًا دائمًا. وتذكر بعض المصادر أن أول من عمّر المنطقة بشكل فعلي هو رجل يُعرف بـ"سيدي محمد"، قدم من المغرب واشترى قطعة أرض في المكان، حيث بنى عليها خلوة للتفرغ للعبادة، ويُعتبر بذلك أول من أسس نواة الاستقرار في قصر عين ماضي، ثم تبعه أصدقاؤه الذين وفدوا معه في

2 – المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط، ص 10.

3ـ هبول حنان، إعادة تأهيل القصور الصحراوية "قصر عين ماضي نموذجا"، رسالة لنيل شهادة الماجستير، معهد الآثار، جامعة بوزريعة، 2011-2010، ص44.

4- حملاوي علي، نماذج من القصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر2006 , ص 97 -98.

بناء الدور والمباني[5]. غير أن بعض الروايات الشفوية تشير إلى أن "سيدي محمد" أقام خلوته الأولى على بُعد حوالي كيلومترين من القصر، في مكان توجد به عين تُعرف بـ"عين سيدي معين". لكن هذه الجماعة التحقت لاحقًا بسكان القصر واستقرت معهم، ويُرجّح أن سبب انتقالهم يعود إلى عاملين رئيسيين:

- لوفرة الماء بالعين الموجودة بقصر عين ماضي أكثر من عين "سيدي معين"، فمن المعروف أن الناس قديما كانوا يسكنون ويتجمعون حول مصادر المياه.
- لضرورة اجتماعية وأمنية وذلك من أجل تكبير المدينة والحفاظ على أمن وحماية المجتمع[6].

وبعد ذلك، استقرت بالقصر جماعتان بدويتان هما أولاد صالح والتجاجنة [7]، وكانتا أول من أسهم في تعمير القصر، حيث بادرتا ببناء المسجد العتيق وعدد من المنازل. وبفضل الحركة العلمية التي عرفها القصر خلال القرنين 11هـ–12هـ / 17م–18م، اكتسب سمعة طيبة وبرز فيه عدد من الفقهاء والعلماء، من أبرزهم سيدي زروقي، وابنه سيدي أبو القاسم، وسيدي أحمد الدهصاء[8].

إلا أن شهرة قصر عين ماضي لم تتجاوز حدود الوطن العربي بشكل واسع إلا بعد بروز شخصية دينية بارزة كان لها أثر بالغ في تغيير مساره التاريخي، ويتعلق الأمر بالشيخ أبي العباس أحمد التجاني (1150هـ / 1737م – 1230هـ / 1814م)، مؤسس الطريقة التيجانية. وُلد الشيخ في قرية عين ماضي، ومع بلوغه سن الخامسة عشرة، بدأ رحلاته العلمية التي شملت عددًا من البلدان العربية، نهل خلالها من شتى العلوم والمعارف الشرعية والصوفية. وبعد عودته إلى الجزائر، أسّس الطريقة التيجانية، التي سرعان ما لاقت انتشارًا واسعًا، وازداد عدد أتباعها في مختلف أنحاء إفريقيا. وبعد وفاته في المغرب عاد نجلاه، محمد الكبير ومحمد الصغير، إلى قصر عين ماضي، واتخذاه مقرًا للطريقة التيجانية، وهو لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا، يشكل أحد أبرز معالمها الروحية والتاريخية[9].

5– حملاوي علي، المرجع السابق، ص 98.

6 – الشيخ السابق للطريقة التيجانية "الشيخ محمد الحبيب التيجاني"، مقابلة شفوية، سنة 2010.

7– يقال أن التجاجنة هم أخوال التيجانية.

8 – هبول حنان، المرجع السابق، ص 30.

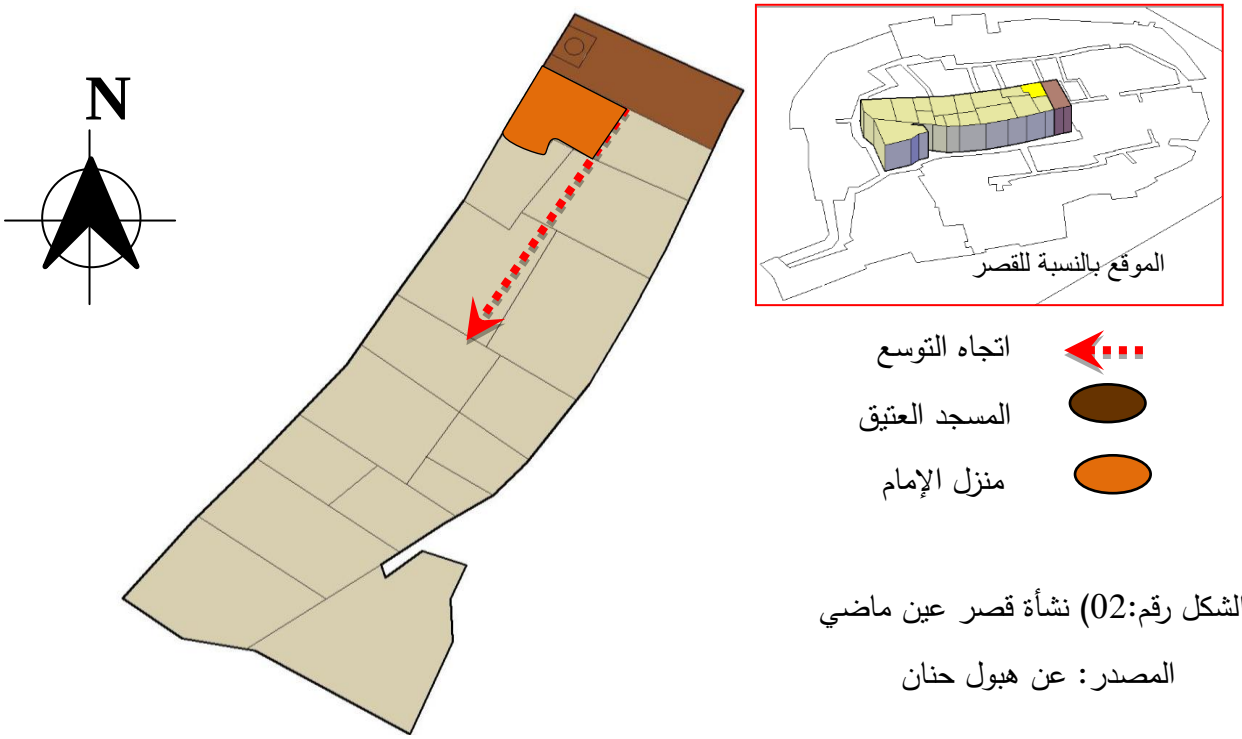
9 – هبول حنان، المرجع السابق، ص 31.

## 4. نشأة القصر ومراحل تطوره:

### 1.4 نشأة القصر (القرن11/17م):

استنادا إلى المقابلة الشفوية[10] يُعتقد أن قصر عين ماضي شُيّد منذ ما يقارب عشرة قرون فوق ربوة، شأنه في ذلك شأن العديد من المدن العربية الإسلامية. وقد أنشأته قبيلتا البدو "أولاد صالح" و"التجاجنة"، رغم وجود خلاف حول أسبقية استقرار أي من القبيلتين في المنطقة. وتميل أغلب الروايات إلى ترجيح أن قبيلة أولاد صالح كانت السباقة إلى الاستيطان بالقصر. ويُستدل على ذلك بأن أول منزل بُني في القصر كان منزل الإمام، وأن أول من تولى الإمامة في المسجد العتيق كان من عرش أولاد صالح، وهو الإمام المعروف بلقب "سيدي موسى"، الذي لا يزال ضريحه قائمًا داخل القصر إلى يومنا هذا، ويُعد من المعالم الروحية والتاريخية البارزة في المدينة. غير أن معظم أفراد قبيلة أولاد صالح لم يستقروا في القصر بشكل دائم، إذ غادروه لاحقًا إلى مناطق أخرى.

تمثل أولى بنايات القصر في منزل الإمام، الذي أُقيم على قمة الربوة، تلاه بناء المسجد العتيق بمحاذاته من الجهة الشرقية، نظرًا لمكانة المسجد المركزية في العمران الإسلامي، حيث يُشكّل النواة التي تلتف حولها بقية البنايات من مساكن وأسواق وفضاءات عامة[11]. ومن الجهة الغربية لمنزل الإمام، شُيّد صف مزدوج من المنازل، بلغ عددها حوالي 12 منزلًا، شكلت نواة التوسع العمراني الأول في القصر (الشكل رقم 2).




(الشكل رقم:02) نشأة قصر عين ماضي

المصدر: عن هبول حنان

10– الشيخ السابق للطريقة التيجانية "الشيخ محمد الحبيب التيجاني"، مقابلة شفوية، سنة 2010.

11 - أحمد سراج، العمارة الإسلامية (خصائص وآثار)، مكتبة ومطبعة الطالب الجامعي، غزة، فلسطين، 2015 ص 14.

### 2.4 التطور العمراني للقصر خلال القرن 17:

شكّلت مدينة عين ماضي في العصور الماضية نقطة عبور بالغة الأهمية نحو المغرب الأقصى، لا سيما بالنسبة لقوافل الحجاج والقوافل التجارية. وقد ساهم هذا الموقع الاستراتيجي في جعلها مركزًا حيويًا للتبادل التجاري، ووجهة مفضلة للعلماء والفقهاء، حيث ازدهرت فيها الدراسة الدينية، والتأليف في المسائل الفقهية، ونسخ الكتب الإسلامية المشرقية والمغربية[12].

كما اشتهرت المدينة بتجارة الغزل والنسيج، مما عزّز مكانتها الاقتصادية وأدى إلى تزايد عدد الوافدين إليها، وهو ما انعكس على توسّعها العمراني. فبعد أن كان الامتداد في البداية من الجهة الغربية، شمل لاحقًا الجهتين الشمالية والجنوبية، مُشكّلًا بذلك نواة عمرانية واضحة المعالم.

وقد تمخض هذا التوسع عن تشكّل ثلاثة شوارع رئيسية، مثّلت عناصر أساسية في تنظيم النسيج العمراني للقصر، إذ لعبت دورًا محوريًا في الربط بين الفضاء الداخلي للقصر ومحيطه الخارجي، فكانت تُوصل إلى البساتين، المقابر، المداخل، الأسواق والرحبات، فضلًا عن مركز القصر الذي يتوسطه الجامع، ويقابله فضاء مفتوح (ساحة فسيحة) يُستخدم لاحتواء كثافة المصلين، خاصة خلال الصلوات الجامعة[13](الشكل 03).

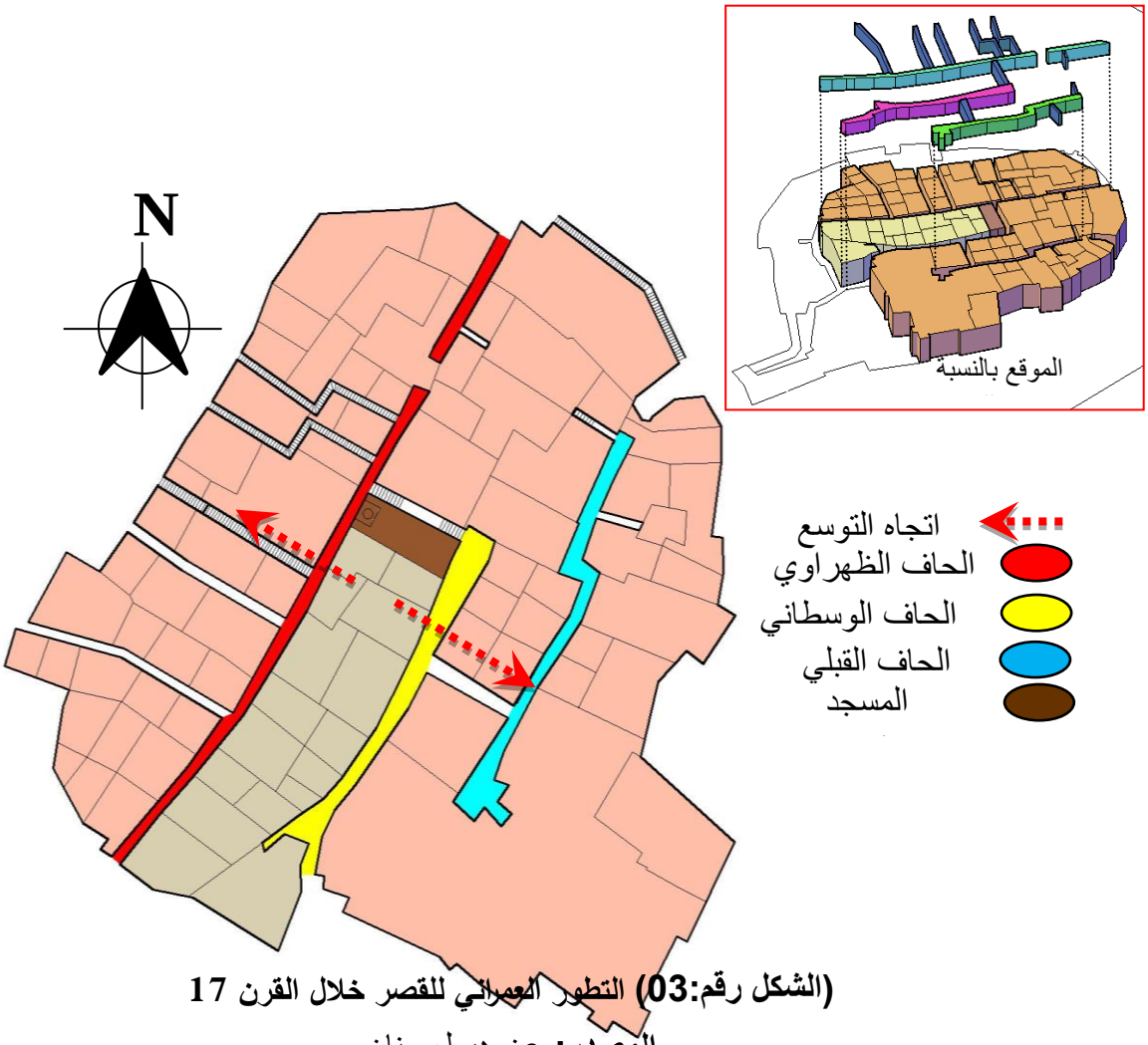
وقد وُجّهت هذه الشوارع في اتجاه شمال–جنوب، وهو توجيه تفضله المدن في المناطق الحارة، لأنه يساهم في تقليل مدة تعرّض الطرق وواجهات المنازل لأشعة الشمس المباشرة، إذ تتعامد هذه الواجهات لفترة أقصر مع حركة الشمس الظاهرية. كما أن هذا التوجيه يتيح للشوارع الاستفادة من الرياح الشمالية الباردة، مما يساعد على تبريدها واستمرار الظلال فيها لفترات أطول بفضل التظليل الطبيعي الناتج عن ارتفاعات المباني وضيق الأزقة[14].

11ـ المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط، ص 5.

12ـ بامون آمنة، صيانة وترميم القصور الصحراوية قصر الشط بورقلة نموذجا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير،2011–2010، ص53.

13ـ م.يحي وزيري، العمارة الإسلامية و البيئة (الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي)، مطابع السياسة، الكويت 2004، ص 98.

مجلة الدراسات الأثرية
ISSN: 1111-7699
المجلد: 23 / العدد: 01 /2025/ ص ص 158-176
EISSN : 2600-6499




**(الشكل رقم:03) التطور العمراني للقصر خلال القرن 17**

**المصدر:** عن هبول حنان

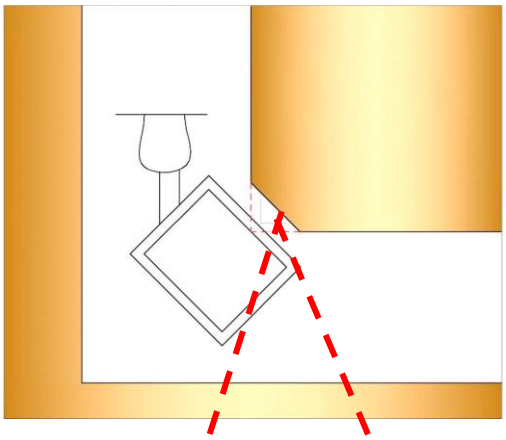
### 1.2.4 خصائص التنظيم العمراني لشوارع قصر عين ماضي:

تميّزت شوارع قصر عين ماضي بتعرّجاتها وعدم استقامتها، وذلك لأسباب وظيفية تتعلّق بالتكيّف مع البيئة المناخية القاسية. فقد صُمّمت بهذه الطريقة لتفادي تحوّلها إلى ممرّات للرياح الشتوية الباردة أو لرياح الخماسين الساخنة والمحملة بالغبار والرمال. ويساهم ضيق الشوارع في الحدّ من هذه الظواهر المناخية، في حين تُعزّز التعرجات والانحناءات هذا الأثر، إذ تتيح وجود مظللة مناطق على امتداد الشارع في مختلف أوقات النهار، بغضّ النظر عن توجيهه.

أما من حيث أبعادها، فقد تراوحت مقاسات الشوارع الرئيسية الثلاثة كما يلي:

1. **الحاف القبلي** (الشارع الجنوبي): ما بين 2.20 و3.50 مترًا.
2. **الحاف الوسطاني** (الشارع الأوسط): ما بين 2.20 و3.60 مترًا.
3. **الحاف الظهراوي** (الشارع الشمالي): ما بين 1.40 و2.80 مترًا.

ومن السمات المميزة أيضًا لهذه الشوارع، غياب الزوايا القائمة عند التقاء الجدران، وهي خاصية عمرانية فريدة تؤدي وظيفة عملية. فوفقًا للروايات الشفوية، استُخدمت هذه التقنية لتسهيل مرور الدواب والعربات، ومنع اصطدامها بحواف الجدران، ما يعكس فطنة السكان في تكييف الفضاء العمراني مع ظروف الحياة اليومية[15] (الشكل رقم 04).



مخطط توضيحي لزوايا الشوارع الرئيسية



(الشكل رقم: 04) مثال عن زوايا الشوارع الرئيسية

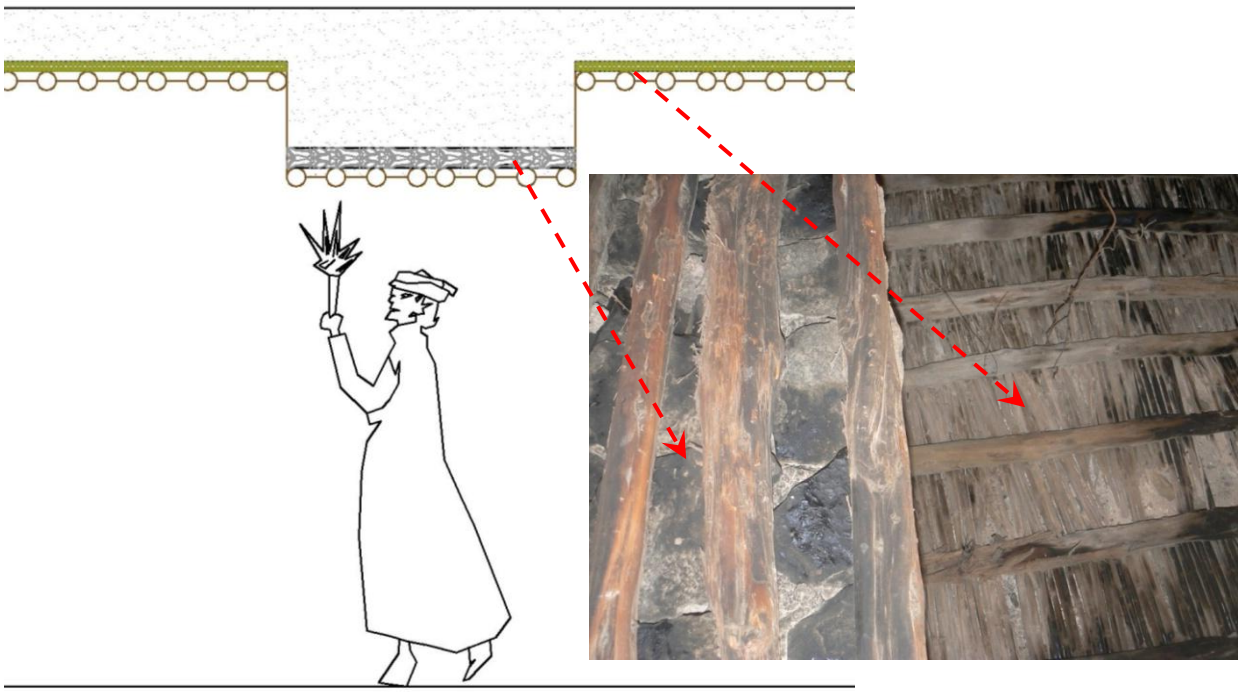
**المصدر**: من انجاز الطالبة

ترتبط الشوارع الرئيسية لقصر عين ماضي ببعضها من خلال شبكة من الأزقة التي تُعتبر في الغالب فضاءات خاصة للعائلات الساكنة بها. وتنقسم هذه الأزقة إلى نوعين رئيسيين: أزقة غير نافذة يتراوح متوسط عرضها حوالي 1.20 مترًا، وأزقة نافذة يصل عرضها إلى حوالي 2 متر.

15 – هبول حنان، المرجع السابق، ص 51.

وقد تم تسقيف هذه الأزقة، المعروفة محليًا بـ"الساباطات"، باستخدام خشب العرعار والقصب، وذلك بهدف توفير الظل وحماية البيوت المفتوحة والمارة من حرارة الشمس. ومن اللافت أن الأزقة الواحدة قد تضم نوعين مختلفين من التسقيف؛ ففي الأسقف العالية يُستخدم كل من القصب وخشب العرعار، أما في الأسقف المنخفضة، فيُستخدم الحجر المسطح إلى جانب خشب العرعار[16].

وفقًا للروايات الشفوية، يعود استخدام هذا التنويع في مواد التسقيف إلى ضرورة تفادي اشتعال القصب في الأماكن المنخفضة نتيجة استخدام المشاعل التي تُضاء ليلاً لإضاءة الأزقة المسقوفة، مما يعكس حكمة السكان في الجمع بين الجوانب العملية والبيئية في تصميم فضاءهم العمراني (الشكل رقم 05).



(الشكل رقم: 05) استعمال نوعين من التسقيف في زقاق واحد

المصدر: من انجاز الطالبة

**مقارنة مع مدن تقليدية مجاورة:**

- **في قصر أولاد دليم** (ولاية غرداية): نجد نفس النمط في تخطيط الشوارع الضيقة والمتعرجة، المصممة لتوفير الظلال والحماية من رياح الشهيلي، مع توجيهها بشكل يحاكي حركة الشمس لضمان التهوية الطبيعية.

15ـ هبول حنان، المرجع السابق، ص 52

- **في القصبة العتيقة بالجزائر العاصمة:** تشترك الشوارع في ضيقها وانحناءاتها المفاجئة، التي تعزز الخصوصية وتمنع الرؤية المباشرة إلى داخل المنازل، وهو بُعد اجتماعي–ديني في العمارة الإسلامية.
- **في المدينة العتيقة بنفطة (تونس):** يظهر بوضوح نفس التخطيط العضوي للشوارع، الذي يقوم على الانغلاق النسبي والانحناءات الحادة، مما يوفّر الظلال في مختلف أوقات اليوم، ويقلّل من اختراق الرياح الرملية، خصوصًا أن المدينة تقع في منطقة شبه صحراوية مشابهة لعين ماضي.

هذا النمط العمراني المتكرّر في مدن المغرب العربي التقليدية، بما فيها قصر عين ماضي، يبرز وحدة فكرية وعملية في تنظيم المجال المبني الإسلامي، حيث يتداخل المناخ، والعقيدة، والعادات اليومية، في تشكيل النسيج الحضري.

### 3.4 التطور العمراني للقصر خلال القرن 18:

تُعدّ مدينة عين ماضي مقرًا رئيسيًا للخلافة التيجانية، التي أسسها الشيخ أحمد التيجاني، المولود سنة 1737م، ومؤسس الطريقة التيجانية. وفي عام 1756م، شُيّدت الزاوية التيجانية في المدينة، وحملت اسمه[17]، ما منحها مكانة دينية وروحية بارزة على مستوى المنطقة والمغرب الإسلامي ككل.

وقد شكّل إنشاء الزاوية نقطة تحوّل في المسار العمراني والاجتماعي والاقتصادي للمدينة. فبفضل موقعها الديني، أصبحت عين ماضي مقصدًا للمريدين والطلبة والعلماء من مختلف أنحاء الجزائر وبلدان الجوار، مما أدى إلى زيادة كبيرة في عدد السكان. وتبع هذا النمو الديمغرافي توسع عمراني ملحوظ شمل بناء منازل جديدة ومرافق لاستيعاب الوافدين، فظهرت أحياء جديدة مثل "الجُزَيْرة" الواقعة في الجهة الشمالية من القصر، والتي شكّلت امتدادًا عمرانيا حديثًا يعكس دينامية المدينة (الشكل رقم 06).

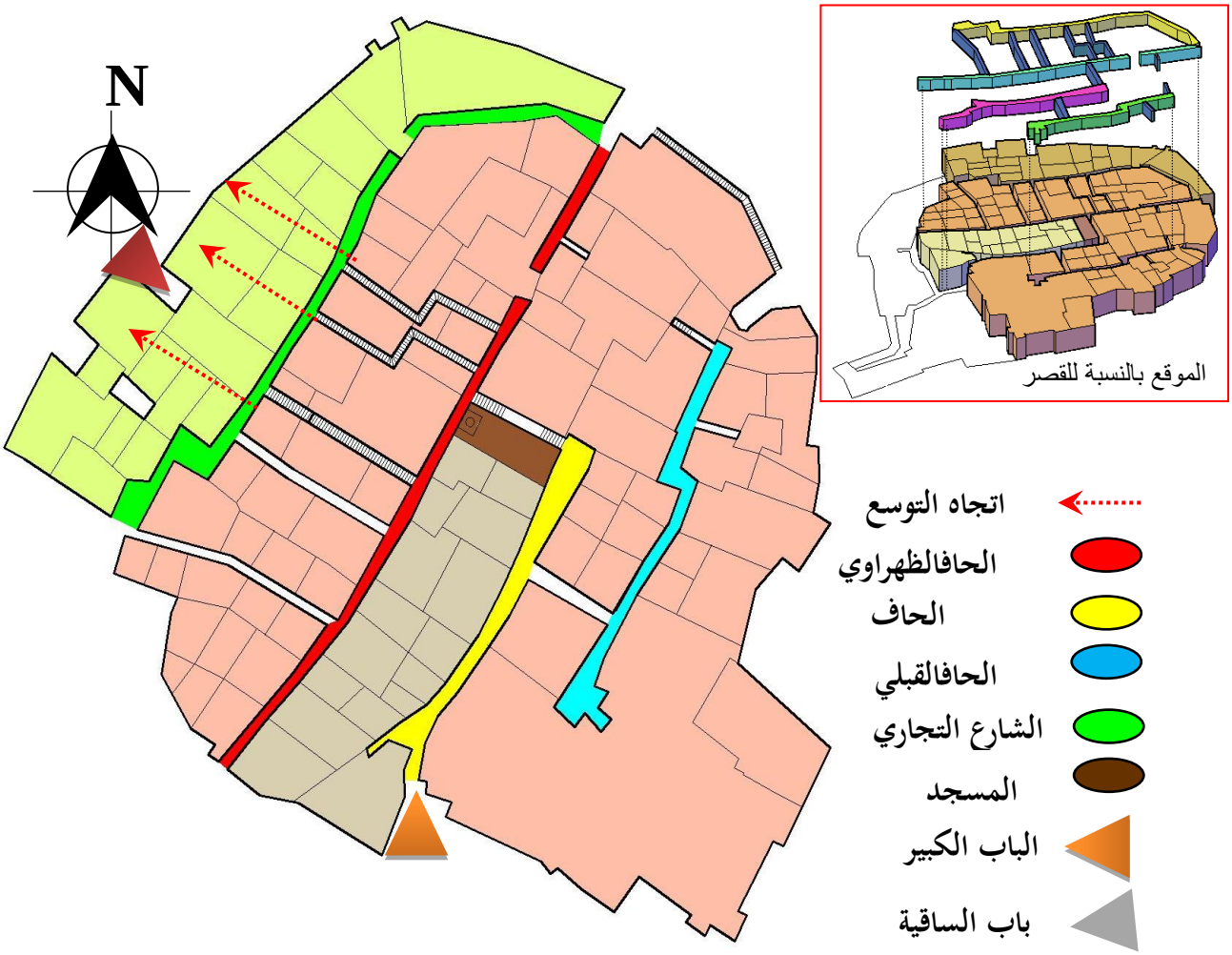
أما على الصعيد الاجتماعي، فقد تحوّلت الزاوية التيجانية إلى مركز للإشعاع الديني والتعليمي، حيث نظّمت حلقات الذكر والدروس الدينية، وساهمت في نشر مبادئ الطريقة التيجانية وقيمها الأخلاقية في المجتمع المحلي، مما عزز من تماسك النسيج الاجتماعي وتكافل السكان.

اقتصاديًا، أدّى هذا النشاط الديني المتزايد إلى تنشيط الحركة التجارية والحرفية داخل المدينة. فقد ازدادت الحاجة إلى الخدمات، لا سيما الإيواء والتموين، ما شجع السكان المحليين على إنشاء محلات وأسواق صغيرة لتلبية حاجات الزوار والطلبة. ومن هنا، برزت وظيفة الطريق الرابط بين حي "الجُزَيْرة" وباقي أجزاء القصر، كفضاء تجاري حيوي تتمركز فيه

16. المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط، ص 6.

أغلب الأنشطة الاقتصادية، في حين احتفظت الأحياء السكنية بطابعها الهادئ والخصوصي، نتيجة الفصل الوظيفي بين الشوارع التجارية والسكنية[18].

هذا التفاعل بين البعد الديني والعمراني والاجتماعي ساهم في رسم ملامح جديدة لقصر عين ماضي، كمدينة روحية نابضة بالحياة ومتطورة في بنيتها الحضرية.




(الشكل: رقم 06) التطور العمراني للقصر خلال القرن 18

المصدر: عن هبول حنان مع التصرف

وصف الرحالة الألماني **هاينريش مالتسان** تحصينات قصر عين ماضي قائلاً: "كانت عين ماضي أحسن حصن في الجزائر كلها، على الأقل أحسن حصن بناه العرب" [19].

وقد عرفت المدينة بالفعل سلسلة من الحملات العسكرية التي مست أسوارها وتحصيناتها، مما أبرز الحاجة المستمرة إلى تعزيز بنيتها الدفاعية. ومن أبرز هذه الهجمات، الحملة العسكرية التي شنها **محمد الكبير باي الغرب** سنة 1785م على قصر عين ماضي، والتي أثرت بشكل كبير على تحصيناته.

18 – السيد أحمد شنقيطي من سكان القصر وأحد أعضاء الجمعية حماية التراث والبيئة بعين ماضي، مقابلة شفوية، سنة 2010.

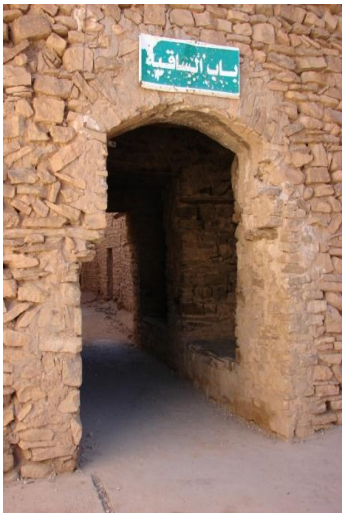
18– هاينرش مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، ترجمة د. أبو العيد دودو، ج3، ص253.

استجابةً لهذا التهديد، أرسل الشيخ **أحمد التيجاني** سنة 1790م أحد أتباعه من المغرب، وهو **المهندس محمود التونسي**، لتقوية دفاعات القصر. وقد تولى هذا الأخير تشييد أسوارٍ جديدة قوية بلغ ارتفاعها نحو **12 مترًا**، بسمك يقارب **2 متر**، مستخدمًا الحجارة المصقولة في البناء. كما زُوّدت هذه الجدران بممشى ومزاغل للرماة، مما يعكس المستوى المتقدم في تقنيات التحصين والدفاع في تلك الفترة.



**(الصورة رقم:01)** منظر خارجي لأسوار القصر
**المصدر:** من انجاز الطالبة

أما على مستوى البوابات، فقد كان أول باب يُفتح كبوابة رئيسية للقصر هو "**الباب الكبير**"، والذي يقع في الواجهة الجنوبية. ولاحقًا، فُتح باب ثانٍ في الجهة الغربية من القصر بمحاذاة الساقية المخصصة لري البساتين، وسُمّي بـ"باب الساقية" نسبةً إليها. وجاء فتح هذا الباب استجابةً لحاجات الفلاحين، حيث سهّل عليهم الوصول المباشر إلى بساتينهم، مما يُظهر كيف ساهم الجانب الوظيفي في تحديد ملامح التنظيم العمراني للقصر.



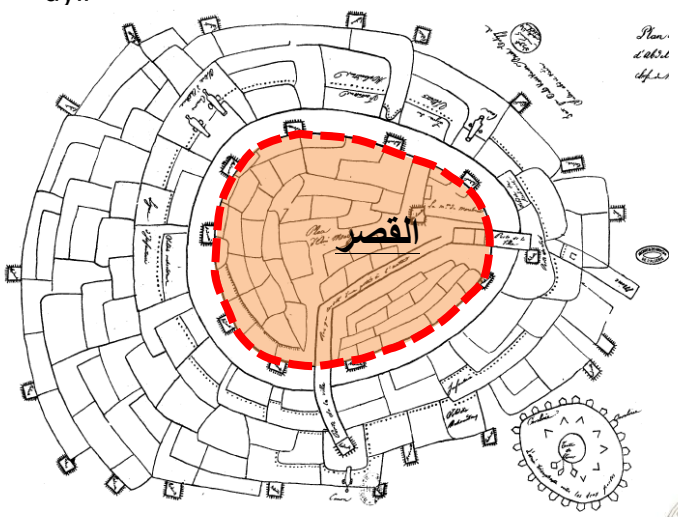

**(الصورة رقم:01)** منظر خارجي لباب الساقية
**المصدر:** من انجاز الطالبة

### 4.4 التطور العمراني للقصر خلال القرن 19:

بعد وفاة الشيخ **أحمد التيجاني** سنة **1815م** بمدينة **فاس** بالمغرب، عاد ولداه، **محمد الكبير** و**محمد الصغير**، إلى **قصر عين ماضي** للإقامة فيه، وإنشاء مقر دائم للزاوية التيجانية، تنفيذًا لوصية والدهما. وقد مثّلت هذه المرحلة نقطة تحول مهمة في التاريخ العمراني للمدينة، إذ شهد القصر توسعًا عمرانيًا ملحوظًا، وتغيرًا في بنيته التنظيمية.

في هذه الفترة، اتخذ قصر عين ماضي شكلاً دائريًا مميزًا، وصفه كلٌّ من **الجنرال دوماس**، و**فرومنتان**، و**مالتسان** بأنه يشبه **بيضة نعام مشقوقة طوليًا**، في إشارة إلى طابعه العضوي وانسيابية تخطيطه العمراني. وقد أكد هذا التوصيف كلٌّ من مخطط **ابن كسكسة** (الشكل رقم 07)، قائد مدفعية الأمير عبد القادر، وكذلك مخطط الجنرال **دوماس** (الشكل رقم 08)، ما يعكس اهتمامًا خاصًا بتوثيق الطابع العمراني للقصر خلال هذه الحقبة.

dyii




الشكل رقم 07: مخطط قصر عين ماضي

**المصدر**:عن ابن الكسكسه مع التصرف




الشكل رقم 08: مخطط عين ماضي سنة 1838م

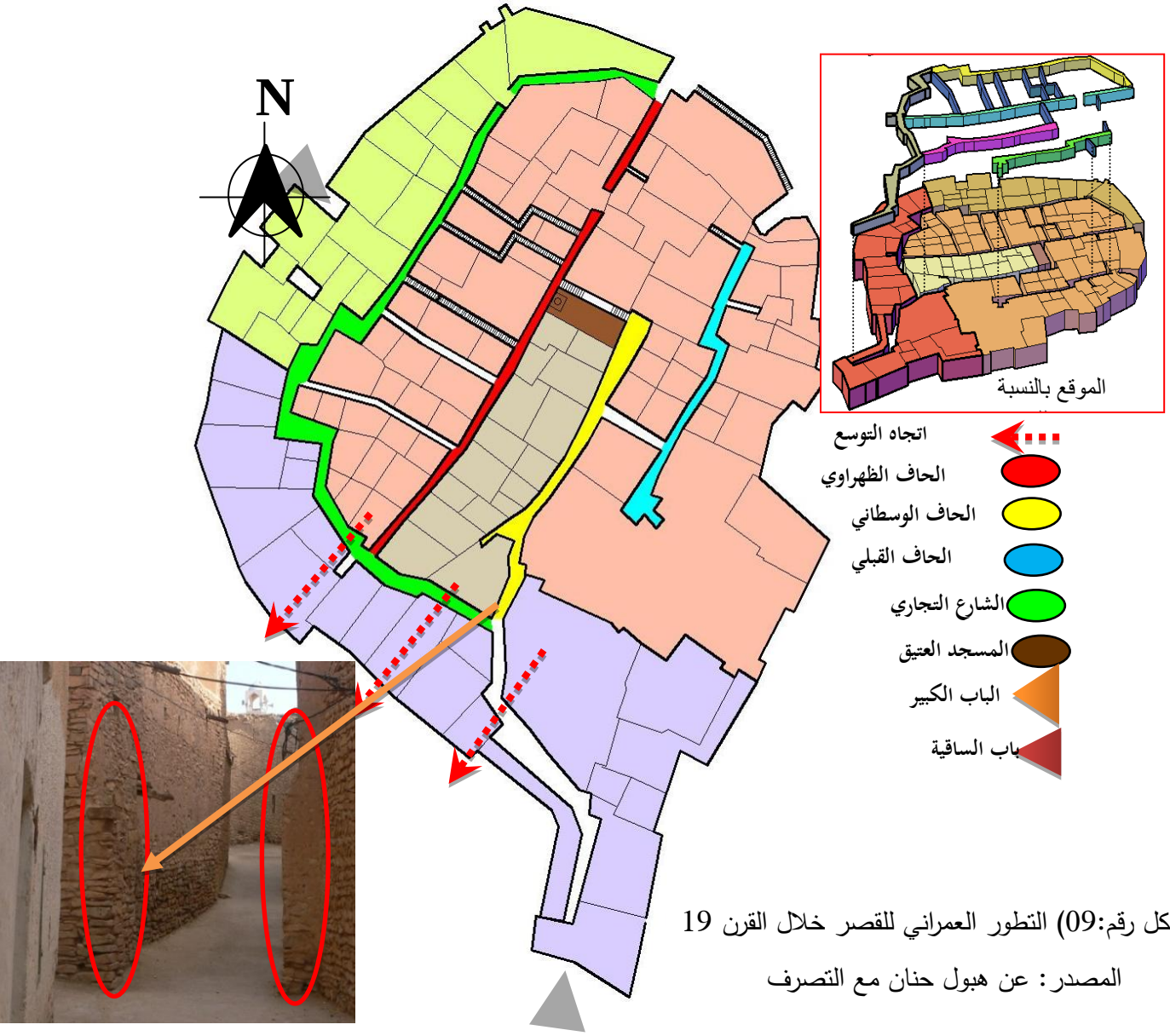
**المصدر**: عن C.Daumas مع إعادة رسمه من طرف الطالبة

#### 1.4.4 توسعة قصر عين ماضي خلال القرن 19 وتأثيرها على الشكل العمراني:

شهد قصر عين ماضي توسعة عمرانية بارزة خلال الفترة الممتدة بين سنتي **1844م** و**1853م**، وقد أثرت هذه التوسعة بشكل ملموس على التخطيط الأصلي للقصر وشكله العمراني. أشار **الجنرال ماري مونج** إلى وجود "الباب الكبير" بجوار منزل الشيخ التيجاني، وهو ما يدل على تغيّر موقع هذا الباب نتيجة التوسعة الجديدة التي أُضيفت إلى القصر في تلك الفترة (الشكل رقم 09).

وفي وصفه لمدخل القصر، ذكر **الجنرال دوباريل:** *"كان للشارع الأول الذي دخلنا منه منظر فخم، وكانت بيوته عالية، وقد سرنا عبره إلى أن وصلنا إلى بيت التيجاني"*. هذا الوصف يعكس طبيعة التغيرات التي طرأت على التنظيم العمراني للقصر، لا سيما بعد توسعة المدخل وتحولاته المعمارية[20].

لقد أسهمت هذه التوسعة في زوال الشكل الدائري النموذجي الذي عُرف به قصر عين ماضي، والذي شبّهه عدد من الرحالة والمؤرخين، مثل **الجنرال دوماس** و**مالتسان**، بـ"بيضة النعامة المشقوقة طوليًا". ومع ذلك، ما تزال بعض آثار "الباب الكبير" القديم ظاهرة إلى اليوم بجوار منزل الشيخ التيجاني، كشاهد مادي على التغيرات التي طرأت على البنية العمرانية للمدينة، ودليل على تفاعلها المستمر مع التحولات الاجتماعية والدينية التي عرفتها في القرن 19.




(الشكل رقم:09) التطور العمراني للقصر خلال القرن 19

المصدر: عن هبول حنان مع التصرف

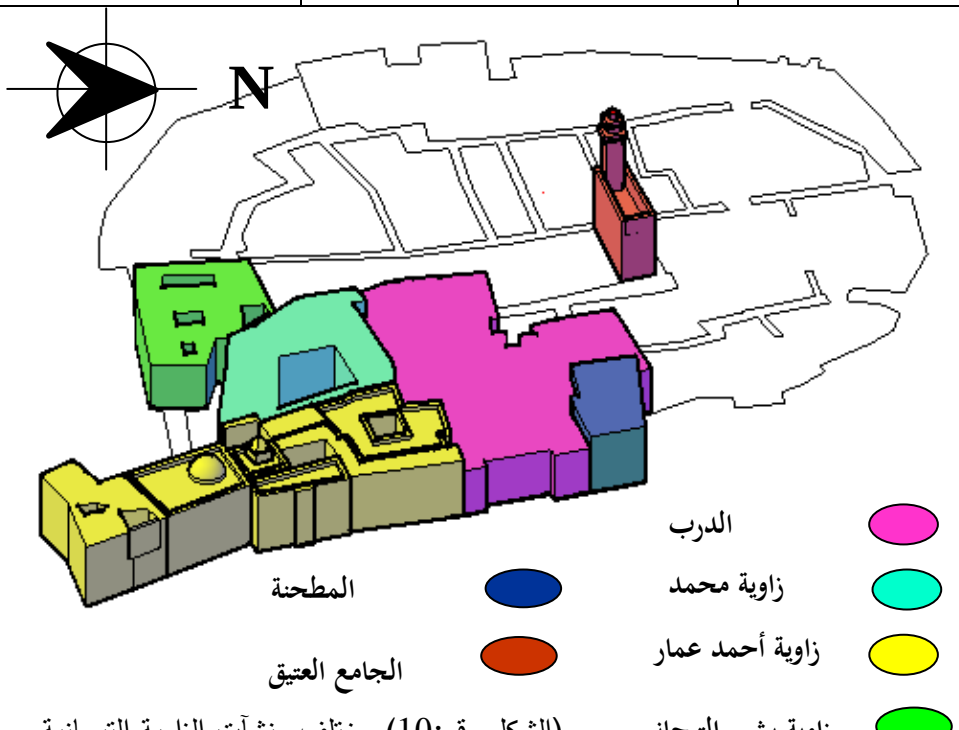
19ـ حملاوي علي، نماذج من القصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائ2006 ، ص 150.

### 2.4.4 تغيّر مواقع مقر الزاوية التيجانية داخل قصر عين ماضي:

عرف مقر الطريقة التيجانية داخل قصر عين ماضي **أربعة مواقع مختلفة** على مر الزمن، نتيجة للتغيرات في القيادة الروحية للطريقة. فكلما تولّى شيخ جديد شؤون الزاوية، كان يُقدم على **نقل مقر الزاوية التيجانية** إلى موقع آخر داخل القصر، لأنّ المتعارف عليه قديما أن كل شيخ يتخذ من منزله مقرًا للزاوية (الشكل رقم10).

ويُعد هذا التنقّل المتكرر لمقر الزاوية دليلاً على **الدور الحيوي للطريقة التيجانية** في تشكيل البنية المجالية والاجتماعية للقصر، كما يعكس المكانة المركزية التي كانت تحظى بها الزاوية داخل النسيج العمراني، ليس فقط باعتبارها مؤسسة دينية، بل أيضًا كمركز للتوجيه الروحي، والتعليم، والضيافة. وجاءت هذه المقرات كالتالي:

| | | |
|---|---|---|
| الشيخ محمد الكبير الابن الأول لأحمد التيجاني مؤسس الطريقة | 1827-1819 | بمقربة من الباب الكبير ويسمى قديما الدرب |
| الشيخ أحمد عمار التيجاني الابن الأول للشيخ محمد الصغير | 1896-1868 | بالتوسعة الجديدة بجانب الباب الكبير (المكان الجديد) |
| الشيخ بشير التيجاني الابن الثاني للشيخ محمد الصغير | 1910-1896 | بمنزله مقابل منزل الشيخ محمد الحبيب من الجهة الجنوبية |
| الشيخ محمد الصغير الابن الثاني لأحمد التيجاني مؤسس الطريقة | 1853-1827 | بمنزله ملاصق للباب الكبير (المكان القديم) من الجهة الشرقية |




(الشكل رقم:10) مختلف منشآت الزاوية التيجانية

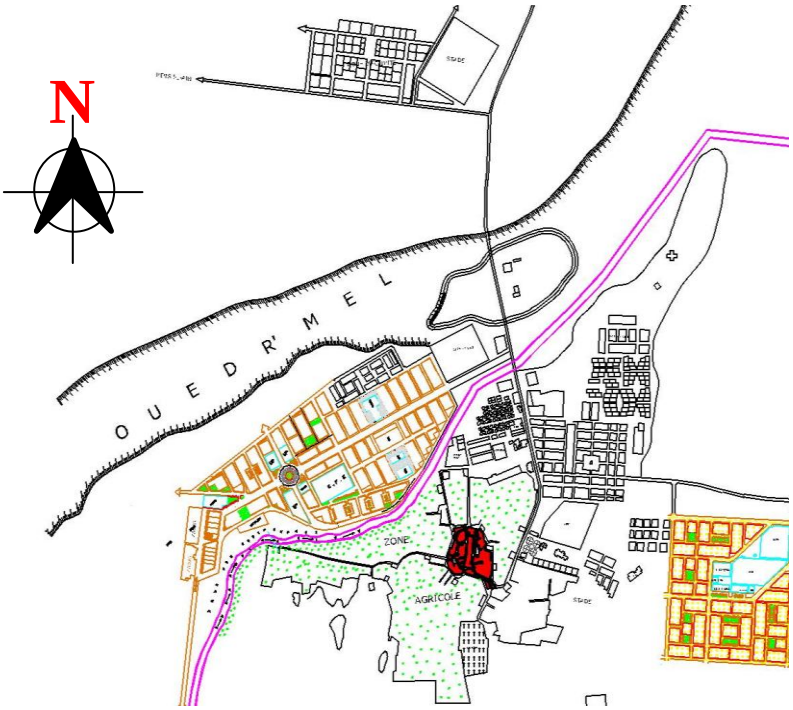
المصدر: عن هبول حنان

### 5.4 المرحلة الأخيرة للتطور العمراني للقصر خلال القرن20:

شهد قصر عين ماضي خلال الفترة الاستعمارية تحولًا عمرانيًا مهمًا، تمثّل في أول عملية توسع حقيقية للنسيج التقليدي القديم باتجاه **الشمال الشرقي**[21]. وقد استمر السكان في الإقامة داخل أسوار القصر إلى غاية سنة **1940**، حيث بدأت تظهر تدريجيًا المساكن خارج القصر. وكان هذا التحول نتيجة **الاكتظاظ السكاني داخل الأسوار**، إضافة إلى القيود المكانية التي فرضها وجود الأسوار والحدائق، مما حدّ من توسّع القصر من الداخل.

في الوقت نفسه، أدى **ظهور التجمعات السكنية الجديدة** إلى نشوء نسيج عمراني حديث، تميز **بتنظيم مجالي مدروس**، اعتمد على تقسيمات حضرية منتظمة، وشبكة من الشوارع الواسعة والمستوية، صُمّمت لتلائم تطور وسائل النقل الحديثة، خاصة **العربات** التي بدأت تشق طريقها إلى الحياة اليومية خلال تلك الحقبة.

ورغم حداثة هذا النسيج العمراني، فقد شكّل **امتدادًا شكليًا ووظيفيًا** لقصر عين ماضي، إذ حافظ إلى حد كبير على **الطابع المعماري العام** للمدينة من خلال التناسق في ارتفاعات المباني والمواد المستعملة في البناء، مما ساهم في خلق **استمرارية حضرية متماسكة** بين النواة التاريخية والمحيط العمراني الحديث (الشكل رقم 11).




(الشكل رقم:11) المرحلة الأخيرة للتطور العمراني للقصر خلال القرن20

المصدر: عن P.D.A.U

20- المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط، ص 5 .

## 5. الخاتمة:

يعتبر قصر **عين ماضي** نموذجًا فريدًا من النماذج العمرانية والتاريخية التي تحتضن تراثًا غنيًا يعكس تاريخ المنطقة وأصالتها. لقد حظي القصر باهتمام واسع من قِبل الرحالة والزوار عبر العصور، لما يتميز به من خصائص متعددة تجمع بين الأبعاد الأثرية، المعمارية، العمرانية، الدينية، والسياحية.

تُجسد القيمة الأثرية للقصر من خلال تصنيف مباني **الزاوية التيجانية** ضمن التراث الوطني، مما يؤكد أهمية القصر كمركز روحي وتاريخي له امتدادات وتأثيرات واسعة داخل الجزائر وخارجها، خاصة في القارة الإفريقية. أما على الصعيد العمراني، فيبرز قصر عين ماضي كنموذج رائع للتخطيط الحضري التقليدي، حيث تعكس شوارعه ومبانيه توزيعًا مدروسًا ينبع من الخصوصيات المناخية والثقافية للمنطقة، مما أضفى عليه طابعًا فريدًا من نوعه بين القصور الصحراوية.

من الناحية المعمارية، يتميز القصر بأسواره الشامخة وجدرانه الحجرية الضخمة التي توحي بالقوة والاستقرار، وهو ما لفت انتباه الرحالة والباحثين الذين وثقوا طابع القصر عبر تقاريرهم ورسائلهم. كما أنه يحتفظ بأسلوب بناء متين يتماشى مع البيئة الصحراوية، مع استخدام مواد محلية وتقنيات بناء مستدامة.

يلعب القصر أيضًا دورًا محوريًا في الحياة الدينية والاجتماعية، باعتباره المقر التاريخي للزاوية التيجانية، وهي طريقة صوفية كان لها تأثير كبير في نشر الثقافة الإسلامية الروحية، وترسيخ قيم التسامح والتعاون المجتمعي عبر القرون. هذا الدور الديني لا يزال حاضرًا حتى اليوم، مما يجعل القصر مركزًا روحيًا يجذب آلاف المريدين والزوار.

بالإضافة إلى ذلك، فإن قصر عين ماضي يحتل مكانة سياحية هامة، إذ يشكل وجهة جاذبة للزوّار الباحثين عن التعرف على التراث الثقافي والمعماري الجزائري الأصيل. يحتفظ القصر بمظهره العمراني التقليدي الذي لم يتغير بشكل كبير، مما يمنح الزائرين تجربة حية وواقعية للتاريخ، ويعزز من قيمة المدينة ككل.

ومن هنا، تبرز الحاجة الملحّة إلى العمل على حماية هذا الإرث الفريد من خلال استراتيجيات شاملة تشمل الترميم المستدام، المحافظة على الطابع العمراني، وتشجيع السياحة الثقافية التي تساهم في دعم الاقتصاد المحلي، مع احترام خصوصية المجتمع المحلي وقيمه.

في الختام، يمثل قصر عين ماضي أكثر من مجرد بناء تاريخي؛ إنه رمز حي لهوية ثقافية عميقة، شاهدة على تاريخ غني، تجمع بين عناصر الحضارة، الدين، والفن المعماري، ويستحق كل جهد يُبذل للحفاظ عليه وتطويره ليظل منارة تراثية تُضيء مستقبل الأجيال القادمة

**قائمة المصادر والمراجع:**

1 -أحمد سراج، العمارة الإسلامية (خصائص وآثار)، مكتبة ومطبعة الطالب الجامعي، غزة، فلسطين، 2015.

2 -المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (P.D.A.U) لبلدية عين ماضي، المرحلة النهائية، مركز الدراسات والإنجاز العمراني URBATIA وحدة الأغواط.

3 -بامون آمنة، صيانة وترميم القصور الصحراوية قصر الشط بورقلة نموذجا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير،2011-2010.

4 -حملاوي علي،نماذج من القصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر2006

5 -م.يحي وزيري، العمارة الإسلامية و البيئة (الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي)، مطابع السياسة، الكويت 2004

6 -هبول حنان، إعادة تأهيل القصور الصحراوية "قصر عين ماضي نموذجا"، رسالة لنيل شهادة الماجستير، معهد الآثار، جامعة بوزريعة، 2011-2010.

7 -هاينرش مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا, ترجمة د. أبو العيد دودو، ج3

8- Eugéne Fromentin, UnEté Dans le Sahara, et uneannée dans lesahel. Edditionillustrée. Paris – Méditerranée, 2004.

9- L.C.DAUMAS, Le Sahara algérien, , Rue Bab-AzounAlger, Paris, 1845